﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله : أين الذين عبدتموهم وأشركتموهم معى ؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان فى الدنيا محصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التى أشركها الكافرون فى العبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذى يصليه الله لهم ؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أن الفتنة هى الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشىء لتعرف الردىء من الجيد ، والحقيقى من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة فى ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التى نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التى نضعها لأبنائنا هى فتنة ، ومن ينجح فى هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هى التى يفرح بها الإنسان أو التى يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحيانا تطلق الفتنة على الشىء الذى يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التى أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله ربنا ما كنا مشركين) . وهمْ فى ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، وفى باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهى أن المُلْك كله لله ، ففى اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان فى اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار فى الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذى يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار فى اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله فى الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار فى الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ماعدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله فى الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله فى اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليم بخفايا الصدور وما كان من السلوك فى الحياة الدنيا ، ويوضح لهم فى الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ ففى هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار من المسئول . وفى حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ، لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له

لقد أشركوا بالله فى الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء فى

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول فى حق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يقعون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون فى الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب فى الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذى لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هى فتنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماض أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماض ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجل إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتي أبداً ، أو قد يأتي الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت ميسرة فأي قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن ـ المؤمنين ـ نعرف ذلك وعلينا أن نقول كما علمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٣ وجزء من الآية ٢٤ سورة الكهف)

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسوله : « انظر » ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : « كذبوا على أنفسهم » أي أن كذبهم الذي سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه في الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون على حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » ومعنى هذا أنهم يبحثون في اليوم الآخر عن الشركاء ولكنهم لا يقدرون على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : « والله ربنا ما كنا مشركين » وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه ويبيّنه قول الله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » فـ « ضل » هنا معناها « غاب » . ألم يقولوا من قبل :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة السجدة)

أنهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أإذا غابوا في الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن يبعثهم ربهم من جديد ؟ . فهم لا يصدقون أن الذي أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة أخرى . ونعرف أن كلمة « ضل » لها معانٍ متعددة .

لكن معناها هنا « غاب » ، وحين يسألهم الله : أين شركاؤكم ؟ ، ينكرون كذباً أنهم أشركوا ، لقد ضل عنهم - أى غاب عنهم - هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذى ينفعه يوم الحشر ، وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها ، ولا يبقى إلا وجه الله الذى يحاسب من أشركوا به .

و« ضل » يقابلها « اهتدى » ، و« ضل » أى لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، و« اهتدى » أى ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ، يكون قد ضل أيضا ، ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر . وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال القمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة فى نفسه فيعصى ربه .

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان :

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة . لكن ماذا عن الذى يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى ؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بنى إسرائيل ، فماذا عن موقف فرعون ؟ . ماذا قال فرعون ؟ :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى ذلك وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك فى نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يُعتدى مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالإله الحق الذى لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهرى فى سلوكه فى ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قَتْله رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحى لم يكن يعرف أى طريق يسلك . وقد يكون الضلال نسياناً ، ومادام الإنسان قد نسى الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

هنا يقرر الحق أن شهادة المرأة تحتاج إلى ضمانٍ وذلك بتأكيدها بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها فى كل تفاصيل ما تراه ، بل هى تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منها تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون فى منطقة النسيان ؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرز من أن توجد فى مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين فى يوم القيامة فهو يقول : « وضل عنهم

ما كانوا يفترون » أى غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم المؤاخذون والمحاسبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له فى تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية . والحق قد قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

بل إن الأصنام نفسها التى اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار .

إذن فالخطأ يكون ممن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثور :

كم حسدنا حراء حين ثوى الرو ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبى بغار ثور ، فقالت بقية الأحجار :

فحراءٌ وثورٌ صارا سواءً بهما أشفع لدولة الأحجار
عبدونا ونحن أعْبَدُ لِلَّهِ من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا علينا دليلا فغدونا لهم وقود النار
قد تَجَنَّوْا جهلاً كما قد تجنَّوْا على ابْنِ مريم والحوارى
للمُغالى جزاؤه والمغالَى فيه تنجيه رحمة الغفار

إذن ، فهاهى ذى الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهى أعبد لله من القائمين بالأسحار ، وصمت الحجارة الظاهر اتخذه البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هى أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجنى من العباد على الأحجار مثل التجنى على عيسى ابن مريم . والذين غالوا فى عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم فى ذلك فهم طامعون فى مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المُتَّخذ لا يقال له:ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم فى يوم كان أملهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أى سبيل للطعن فى القرآن ، فكأن قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن المعجزة التى جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هى القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التى شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام :

كشق البحر بالعصا أو رؤية العصا وهى تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهى معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التى تستصحب وقت النوم وتؤدى مهمتها ؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم فى كهف فى جبل ، والجبل فى صحارى تهب عليها الرياح والزوابع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا فى النوم الذى أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعجزة رسول الله ـ إذن ـ جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفقه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم بسيد الأدلة فى وسائل الإدراك الإنسانى ، وهو السمع ، والحق يقول : « ومنهم من يستمع إليك » .

إن هناك فارقا بين « يسمع » و« يستمع » ، فالذى يسمع هو الذى يسمع عرضاً ، أما الذى « يستمع » فهو الذى يسمع عمداً . والسامع دون عمد ليس له خيار ألا يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذى يستمع فهو الذى يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المطاعن على القرآن .

ويقول الحق سبحانه : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » و« الأكنة » جمع « كنان » وهى الغطاء أو الغلاف . ويتابع الحق : « وفى آذانهم وقراً » أى جعلنا فى آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن

جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر . ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المُستقبِل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾

(سورة محمد)

إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا فى استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا : أى كلام هذا الذى يقوله محمد ؟ هؤلاء المستهزئون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله، والسامع مختلف ؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوعى والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذانهم تصم عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، وتجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا فى القرآن . أما الذى يريد أن يكون جباراً فى الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته فى عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .

وكان صناديد قريش أمثال أبى جهل وأبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بنْ ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قريش يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذى يقوله محمد ؟

وكان النضر راوية للقصص التى يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدرى ما يقول محمد إلا أنه يقول أساطير الأولين .

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقر على آذانهم قهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر فى قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ، وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

والأساطير هى جمع أسطورة ، والأسطورة شىء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية . وكأن الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجدوا ثغرة فى القرآن فلا يجدون . وقال الله عنهم قولاً فصلاً :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا فى السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوى بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التى بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم

ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدى ، ويمعن فى طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذى يسمع القرآن يهتدى به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً فى الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة فى البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيمانى من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾

(سورة الصافات)

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾

(سورة الأنعام)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وماداموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوهم عن اتباعها ؛ لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم فى خدمتهم وبسط سلطانهم عليهم . هذا ـ أولا ـ هو الذى دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم ـ ثانيا ـ ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، ـ إذن ـ فمن مصلحتهم ـ أولا ـ أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون ـ إذن ـ فحرصهم ـ أولا ـ كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآنى معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه وينأوْن عنه » فالبداية كانت نهى الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أنّ الأداء القرآنى جاء معبرًا دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ،

فقول الحق : « وهم ينهون عنه » قول منطقى يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه فى أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثانى : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ذلك لأن الوزرين : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم .

ويتابع الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذى يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جنده أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم فى الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية فى صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

أى أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن فى آخر ترتيبه النزولى هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين: فريق يرى أنه على حق، وفريق ثانٍ أنه على باطل ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لابد أن يكون مؤيداً فى شأن العقيدة ولا مداهنة فى هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

(سورة الكافرون)

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن فى ترتيبه النزولى لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى فى قوله تعالى : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل فى دين الله . نقول : نعم إنه لا يتعارض ؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ؛ بدليل أنه قال جل وعلا :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

(سورة النصر)

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك ؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

(سورة المسد)

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً.

ويجيء قول الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) ﴾

(سورة النصر)

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام . ومجيء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي لهب وزوجه .

وتأتي من بعدها سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾

(سورة الإخلاص)

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وُقفوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً، مثل ما تجده فى قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن فى كلٍّ من هاتين الجملتين جواباً ، لكن فى هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآنى ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع فى المعنى مذاهبه التى يراها .

وفى حياتنا نجد مجرماً فى بلد من البلاد يستشرى فساده وإجرامه فى سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطى حتى لا يضع القيود فى يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدى كل معانى الذلة التى يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً ترييب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع فى تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة فى إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطى على هذا المجرم .. فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾

(سورة الأنعام)